

الباب الثامن

عذاب النار

— صفة جهنم

يقول الله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله تبعة ثقيلة رهيبة . فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله ، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك . إنها نار فظيعة متسعة وقودها الناس والحجارة . الناس فيها كالحجارة سواء . في مهانة الحجارة . وفي رخص الحجارة . وفي تذف الحجارة . دون اعتبار ولا عناية . وما أفظعها ناراً هذه التي توقد بالحجارة ! وما أشده عذاباً هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة ! وكل ما بها وما يلبسها فظيع رهيب . عليها ملائكة غلاظ شداد . تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون . ومن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم ، ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم . وهم بغلظتهم هذه وسدنتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ناركم هذه التي توقدون : جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله ، قال : فانها

فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها (١))

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم (٢))

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفّس رجل من أهل النار لأحرقهم (٣)) .

وعن خالد بن عمير قال : خطب عتبة بن غزوان رضي الله عنه فقال: (إنه ذُكر لنا أن الجبر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قعرأ والله لتملأنه، أفعجبتُم ؟ (٤))

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (كنا عند النبي صلى الله فسمعنا وجبة (٥) فقال النبي ﷺ : (أتدرون ما هذا ؟) قلنا الله ورسوله أعلم ، قال: (هذا حجر أرسله الله في جهنم منذ سبعين خريفاً ، فالآن حين إنتهى إلى قعرها (٦))

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لو أن مقمعا (٧) من حديد جهنم وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان (٨) ما أقلوه من الأرض (٩))

وعلى المؤمن أن يقي نفسه ، وأن يقي أهله من هذه النار . وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار .

إنها لمسات تصور العذاب الشديد وشيكا أن يقع ، وقد سبقه التنذير بخطوة. لينتقد

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٢) رواه أحمد ورواته رواية الصحيح .

(٣) رواه البيهقي وأبو يعلى .

(٤) سمعنا وجبة : معناه سمعنا صوتا يشبه سقوط شيء من مكان عال

(٥) (٦٤) رواه مسلم .

(٧) مقمّع : المطرق .

(٨) الانس والجن .

(٩) رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والحاكم وقال صحيح الإسناد .

من يستمع : (إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد)
ليتقذ من يستمع . كالهاتف المحذر من حريق في دار يوشك أن يلتهم من لا يفر
من الحريق . وهو تصوير - فوق أنه صادق - بارع موح مؤثر . .

قال الامام أحمد : حدثنا أبو نعيم بشير ابن المهاجر ، حدثني عبد الله ابن بريرة
عن أبيه رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فنأدى ثلاث مرات : « أيها
الناس أتدرون مأمثلي ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال ﷺ : « إنما مثلي
ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم ، فبعثوا رجلاً يتراعى لهم ، فيبتأ هو كذلك أبصر
العدو ، فأقبل لينذرهم ، وخشي أن يدر كه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه .
أيها الناس أئتم . أيها الناس أئتم أيها الناس أئتم »

وروى بهذا الاسناد قال رسول الله ﷺ : بعثت انا والساعة جميعاً . إن
كادت لتسبقني »

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل
استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراس يقعن فيها فإنا أخذ بمحجزكم^(١) وأنتم
تقحمون فيها^(٢) .

وفي رواية لمسلم « إنما مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله جعل
الفراس ، وهذه الدواب يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبهن ، فيقحمون فيها ، قال :
فذلكم مثلي ومثلكم وأنا أخذ بمحجزكم عن النار ، هلم عن النار هلم عن النار ، فيغلبوني
ويقحمون فيها » .

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا النار » قال :
وأشاح^(٣) ثم قال : « اتقوا النار » ثم أعرض وأشاح ثلاثاً حتى ظننا أنه ينظر إليها ثم
قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فكلمة طيبة^(٤) »

(١) الحجز - جمع حجزه وهي مقعد الازار .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) أشاح : معناه حذر النار كأنه ينظر إليها .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنها قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يخطب يقول :
أندركم النار ، أندركم النار ، حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا ،
حتى وقعت خمصة كانت على عاتقه عند رجله^(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية « وأنذر عشيرتكم
الأقربين » دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فاجتمعوا ، فعمم^(٢) وخص^(٣) ، فقال : يا بني كعب
ابن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني
هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة انقذي
نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً^(٤) .

هذه جهنم ! ففيها الكفاية ! جهنم التي وقودها الناس والحجارة : جهنم التي يكسب
فيها الغاؤون وجنود إبليس أجمعون : جهنم الحطمة التي تطلع على الأفئدة . جهنم التي
لا تُبقي ولا تند . جهنم التي تكاد تميز من الغيظ .

والغاؤون صنوف ودرجات . والغواية ألوان وأشكال « وان جهنم لموعدهم
أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » . فلكل باب منهم جزء مقسوم
بحسب ما يكونون وما يعملون . وجهنم تحصرهم فلا يفلت منهم أحد « وجعلنا جهنم
للكافرين حصيراً » . وجهنم تتسع لهم فلا يند^(٥) عنها أحد « يوم تقول لجهنم هل امتلأت
وتقول هل من مزيد »

وبهذا السؤال والجواب يتجلى مشهد عجيب رهيب . هذا هو كل كفار عنيد .
هؤلاء هم كثرة تقذف في جهنم تبعاً ، وتتكدس ركاباً ثم تنادي جهنم هل امتلأت ؟
واكتفيت ! ولكنها تلهظ وتتحرق ، وتقول في كظة الأكلو النهم : هل من مزيد
فيا للهول الرعب . انها جهنم . فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« يؤتى بالنار يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها^(٦) »

(١) رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

(٢) رواه مهلم والبخاري والترمذي والنسائي .

(٣) رواه مسلم والترمذي .

هذه نار الدنيا فكيف بنار الآخرة . ولكن ابن حريق من حريق؟ في شدته أو مدته !
 وحريق الدنيا بنار يوقدها الحلق . وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق . وحريق الدنيا
 لحظات وتنتهي ، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله . ومع حريق الآخرة غضب الله
 والارتكاس الهابط الذميمة ونحن نتصور حريق الآخرة من أحاديث رسول الله ﷺ
 التي أنذر فيها وأرهب :

روى عن أنس رضي الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية «وقودها الناس
 والحجارة» فقال : أوقد عليها ألف عام حتى احترت ، وألف عام حتى ابيضت ، وألف
 عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة . لا يطفأ لهبها (١) »

وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : جاء جبريل الى النبي ﷺ في حين
 غير حينه الذي كان يأتيه فيه ، فقام إليه رسول الله ﷺ فقال : « يا جبريل مالي أراك
 مُتغير اللون ؟ فقال : ماجئتك حتى أمر الله عز وجل بنافع النار ، فقال رسول الله
 ﷺ : يا جبريل صف لي النار ، وانعت لي جهنم ، فقال جبريل : إن الله تبارك وتعالى
 أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احترت
 ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت . فهي سوداء مظلمة ، لا يضيء شررها ،
 ولا يطفأ لهبها ، والذي بعثك بالحق لو أن قدر ثقب ابرة فتح من جهنم لمسات من في
 الأرض كلهم جميعاً من قبس وجهه ومن تنزريجه ، والذي بعثك بالحق لو أن حلق سلسلة
 أهل النار التي نعت الله في كتابه وضعت على جبال الدنيا لارفضت وما تقارت ، حتى
 ينتهي إلى الأرض السفلى ، فقال رسول الله ﷺ حسي يا جبريل ، لا يصدع قلبي فأموت ! »
 قال : فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكي فقال : « تبكي يا جبريل وانت
 بالمكان الذي أنت به ؟ » فقال : ومالي لأبكي ؟ أنا أحق بالبكاء ، لعلي أكون في

(١) رواد البيهقي والاصبهاني .

علم الله على غير هذه الحال الذي أنا عليها، وما أدري لعلي أبتلي بأبتلي به ابليس فقد كان من الملائكة ، وما أدري لعلي أبتلي بما أبتلي به هاروت وماروت ، فما زالوا يبكيان حتى نوديا أن ياجبريل وبأحمد إن الله قد أمنكما أن تعصياه ، فارتفع جبريل عليه السلام) وخرج رسول الله ﷺ فرمى بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون فقال : (أنتضحكون وورائكم جهنم ، فلو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ولما أسغتم الطعام والشراب ، ولخرجتم إلى الصعُدات تجأرون إلى الله (١))
وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل : (مالي لا أرى ميكائيل ضاحكاً قط ؟) قال : ماضحك منذ خلقت النار (٢) .

هذه هي جهنم .. جهنم التي لا تبقي ولا تندر (لا تبقي ولا تندر لواحة للبشر) فهي تكنس كئساً ، وتبلع بلعاً ، وتمحو محواً ، فلا يقف لها شيء ، ولا يبقى ورائها شيء ، ولا يفضل منها شيء ! إنها وعيد مفزع .. إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك :
عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فجاء فنظر إليها وإلى ما أعدت الله لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه قال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فأمر بها فحفت بالمسكاره ، فقال : ارجع إليها فرجع إليها ، فقال وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد ، وقال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضاً ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها (٣))

(١) رواه الطبراني في الاوسط وذكره المنذري في « الترغيب والترهيب » .

(٢) رواه أحمد من رواية اسماعيل ابن عياش وبقيّة رواه ثقات .

(٣) رواه ابو داود والنسائي والترمذي واللغظ له ، وقال : حديث حسن صحيح .

أما أصحاب النار » وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا)

فهم من ذلك الخلق العجيب المغيب الذي لا يعلم طبيعته وقوته إلا الله، وقد قال لنا عنهم أنهم .. (لا يعصون الله) .. فقرر أنهم يطيعون ما يأمرهم به الله ، وان بهم القدرة على فعل ما يأمرهم . فهم إذن مزودون بالقوة التي يقدرّون بها .. (ويفعلون ما يؤمرون) .. مزودون بالقوة التي يقدرّون بها على كل ما يكلفهم الله إياه . فإذا كان قد كلفهم القيام على سقر ، فهم مزودون من قبله سبحانه بالقوة المطلوبة لهذه المهمة كما يعلمها الله .

إن هذا القرآن هو تنبه وتذكّر فمن شاء فليذكر ومن لم يشأ فهو وشأنه ، وهو وما يختار من جنة وكرامة أو من سقر ومهانة .

٢ - أهل النار

إن الكفر عمى . عمى في طبيعته . وعمى عن رؤية دلائل الحق . وعمى عن رؤية حقيقة الوجود وحقيقة الارتباطات فيه . وحقيقة القيم والأشخاص والأحداث والأشياء . والكفر ظلمة أو ظلمات . فعندما يبعد الناس عن نور الايمان يقعون في ظلمات من شتى الأنواع والأشكال . ظلمات تعز فيها الرؤية الصحيحة لشيء من الأشياء . والكفر هاجرة حرور . تلفح القلب فيه لوافح الخيرة والقلق وعدم الاستقرار على هدف وعدم الاطمئنان الى نشأة أو مصير . ثم تنتهي إلى حرّ جهنم ولفحة العذاب هناك . والكفر موت . موت في الضمير . وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل . . وانفصال عن الطريق الواصل . وعجز عن الانفعال والاستجابة الآخذين من النبع الحقيقي المؤثرين في سير الحياة .

إن هؤلاء نتيجتهم أن يكونوا وقوداً لجهنم (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً)

حطباً لجهنم . تتلظى بهم وتزداد اشتعالاً ، كما تتلظى النار بالحطب . إن جهنم . تستقبل أهلها الذين كفروا في غيظ وحق شديد (وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير إذا ألقوا فيها ممعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ) .

وجهنم مخلوقة تكظم غيظها ، فترتفع أنفاسها في شهيق وهي تفور، ويلاً جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق من الغيظ العظيم وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحق على الكافرين . .

ونلمح ظاهرة في خزنة جهنم . . (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزال الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) .

وواضح أن هذا السؤال في هذا الموضوع هو للتأنيب والتزويل . . فهي مشاركة لجهنم في الغيظ والحق . كما هي مشاركة لها في التعذيب ، وليس أمر من التزويل والتأنيب للضائق المكروب ! والجواب في ذلة وانكسار واعتراف بالحق والغفلة . . فالذي يسمع أو يعقل لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء . لا يجحد بمثل ما جحد به أولئك المناكيد . ثم هو دعاء الله عليهم بعد اعترافهم بذنبهم في الموقف الذي لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه . . (فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) . . والسحق البُعد . والدعاء من الله قضاء . فهم مبعودون من رحمته . لارجاء لهم في مغفرة ، ولا إقالة لهم من عذاب . وهم أصحاب السعير الملازمون له . وبالها من صعبة ! وبالها من مصير ! . وهذا العذاب عذاب السعير ، في جهنم التي تشق بأنفاسها وهي تفور ، عذاب شديد مروع حقا . والله لا يظلم أحداً . ونحسب والله أعلم - أن النفس التي تكفر بربها - وقد أودع فطرتها حقيقة الايمان ودليله - هي نفس فرغت من كل خير . كما فرغت من

كل صفة تجعل لها اعتباراً في الوجود، فهي كالحجر الذي توقد به جهنم . وقد انتهت الى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار . إلى غير نجاة منها ولا فرار . والنفس التي تكفر بالله تظل تنتكس وتوتكس في كل يوم تعيشه ، حتى تنتهي إلى صورة بَشِعة مسيخة شنيعة . ، صورة منكرة جهنمية نكيرة . صورة لا يمانها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومسخها وشاعتها . فكل شيء روحه مؤمنة ، وكل شيء يُسبح بحمد ربه ، وكل شيء فيه هذا الخير ، وفيه هذه الوشيجة التي تشده الى محور الوجود .. ماعدا هذه النفوس الشاردة المفلته من أواصر الوجود ، الآبدة الشريرة ، الجاسية المسوخة النفور . فأى مكان في الوجود كله تنتهي اليه ، وهي مبتوة الصلة بكل شيء في الوجود انها تنتهي إلى جهنم المتغيظة المتملظة ، الحارقة ، المهذرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولا حق ولا كرامة .

إن الناس يواجهون هذا الحق الذي جاءهم به الرسول من عند الله وهم فريقان : فريق "حي" ، أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية عاملة مفتوحة وهؤلاء يستجيبون للهدى . فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقي معها إلى الحد الذي يكفي أن تسمعه فتستجيب له (إنما يستجيب الذين يسمعون) .

وفريق ميت معطل الفطرة لا يسمع ولا يستقبل، ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب ليس الذي ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله — فدليله كائن فيه ، ومتى بُلِّغَ إلى الفطرة وجدت فيها مصداقه فاستجابت اليه حتماً — إنما ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفطرة ، وقيام أجهزة الاستقبال فيها بمجرد التلقي . . هذه هي قصة الاستجابة وعدم الاستجابة تكشف حقيقة الموقف كله .

فهذا الذي جاء من عند الله بصائر . والبصائر تهتدي وتهدي (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ) وهذا بذاته بصائر

تهدي . فمن أبصر فلنفسه فإنما يجد الهدى والنور وليس وراء ذلك إلا العمى . فما يبقى على الضلال بعد هذه الآيات والبصائر إلا أعمى . معطل الحواس ، مغلق المشاعر ، مطموس الضمير .

لقد منح الله سبحانه أسمعاً وأبصاراً وأفئدة (ولقد مكّناهم فيما إن مكّناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) والقرآن يعبر عن قوة الإدراك مرة بالقلب ومرة بالفؤاد ومرة باللب ومرة بالعقل . وكلها تعني الإدراك في صورة من صورهِ - ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم في شيء إذ أنهم عطوها وحجبوها . (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) إنهم لم يفقدوا السمع ، ولم يفقدوا البصر ، ولكنهم عطوا السمع وعطوا البصر ، أو عطوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر ، فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدي هذه الوظيفة .

(أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم وذل عنهم ما كانوا يفترون) . صورة حسية تتجسم فيها حالة الفريقين . والفريق الأول كالأعمى لا يرى وكالأصم لا يسمع - والذي يعطل حواسه وجوارحه عن الغاية الكبرى عنها ، وهي أن تكون أدوات موصولة للقلب والعقل ، ليدرك ويتدبر فكأنما هو محروم من تلك الجوارح والحواس - والفريق الثاني كالبصير يرى ، وكالسميع يسمع ، فيهديه بصره وسمعه .. (قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور) .. والفرق بين الحق والباطل واضح ؟ وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، فالعمى وحده هو الذي يصدّم عن رؤية الحق الواضح الجاهر الذي يحسّ بآثره كل من في السموات والأرض .. (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق

كمن هو أعمى . إنما يتذكر أولوا الألباب) .. إن المقابل لمن يعلم إنما أنزل اليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا ، إنما المقابل هو الأعمى ! وهو أسلوب عجيب في لمس القلوب وتنجيم الفروق . وهو الحق في الوقت ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف . فالعمى وحده الذي ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تخفى إلا على أعمى . والناس ازاء هذه الحقيقة الكبرى - كما بينا - صنفان :

مبصرون فهم يعلمون ، وعمي فهم لا يعلمون ! والعمى عمى البصيرة ، وانطاس المدارك ، واستغلاق القلوب وانطاس قبس المعرفة في الأرواح ، وانفصالها عن مصدر الاشعاع .. (أفانت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين) .

وهم ليسوا أصمًا ولا عميًا ، ولكنهم كالصم والعمي في الضلال وعدم الانتفاع بالدعاء إلى الهدى ، والاشارة الى دلائله . ووظيفة الرسول أن يسمع من يسمع ، وأن يهدي من يبصر . فاذا هم قد عطوا جوارحهم ، وطمسوا منافذ قلوبهم وأرواحهم (ومنهم من يستمعون إليك أفانت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر اليك أفانت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون . إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) يستمعون بأذانهم وقلوبهم مغلقة ، وينظرون بعيونهم وبصيرتهم مطموسة ، فلا يثوبون من السمع والنظر بشيء ، ولا يهتدون الى الطريق .

إن هؤلاء الخلائق يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا ، وينظرون ولا يميزون ما نظروا .. إن هؤلاء لكثير ، في كل زمان وفي كل مكان . والرسول ﷺ لا يملك لهم شيئاً . لأن حواسهم وجوارحهم مطموسة الاتصال بعقولهم وقلوبهم ، فكأنها معطلة لا تؤدي حقيقة وظيفتها .. (صم بكم عمي فهم لا يرجعون) .

وإذا كانت الآذان والألسنة والعيون لتلقي الأصداء والأضواء والانتفاع بالهدى والنور فهم قد عطوا آذانهم فهم صم . وعطوا ألسنتهم فهم بكم ، وعطوا عيونهم فهم

عمى فلا رحمة لهم الى الحق ولا أوبة لهم إلى الهدى ولا هداية لهم إلى النور .
إن النوافذ المفتوحة في أرواح المتقين مغلقة عند الكافرين . فعلى أبصارهم غشاوة
فلا نور يوصوص لها ولا هدى .. (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة
ولهم عذاب عظيم) .. وقد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وغشى على أبصارهم جزاء
وفاقا على استهتارهم بالانذار حتى تساوى لديهم الانذار وعدم الانذار (سواء عليهم
أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) .

إنها صورة صلدة ، مظلمة ، جامدة ، ترسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة
حركة الحتم على القلوب والاسماع والتغشية على العيون والأبصار . (فهم صمّ بكم
عمى) .. ولو كانت لهم آذان وألسنة وعيون ما داموا لا ينتفعون بها ولا يهتدون ،
فكأنها لا تؤدي وظيفتها التي خلقت من أجلها ، وكأنهم إذن لم توهب لهم آذان
وعيون ، وهذه منتهى الزرابة بمن يعطل تفكيره ويغلق منافذ المعرفة والهداية ويتلقى
في أمر العقيدة والشريعة من غير الجهة التي ينبني أن يتلقى منها أمر العقيدة والشريعة .
إنهم صمّ لا يسمعون ، بكم لا يتكلمون غارقون في الظلمات لا يبصرون ! ..
(والذين كذبوا بآياتنا صمّ وبكمّ في الظلمات) .. إنهم كذلك من ناحية التكوين
الجسماني المادي فإن لهم عيوناً وآذاناً وأفواهاً ولكن ادراكهم معطل فكأنما هذه
الحواس لا تستقبل ولا تتقل ؟ .. وانه كذلك هذه الآيات المبتوتة في صفحات الوجود
والآيات الأخرى المسجلة في صفحات هذا القرآن .. هذه الآيات تحمل في ذاتها فاعليتها
وايقاعها وتأثيرها لو أنها استقبلت وتلقاها الادراك ، وما يعرض عنها معرض إلا وقد
فسدت فطرته فلم يعد صالحاً حياة الهدى ، ولم يعد أهلاً لذلك المستوى الراقى من الحياة ،
(أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها
لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .

إن للهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقى .. هذه مصارع الغابرين شاخصة موحية ،

تحدث بالعبر ، وتنطق بالعظاآ .. (أفآم يسىروا فى الأرض) .. فىروها فتوحى لهم بالعبرة ؟ وتنطق لهم بلسانها البلىغ ؟ وتحدثهم بما تنطوى علىه من عبر ؟ (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) .. فتدرك ما وراء هذه الآآار الدوارس من سنة لا تتخلف ولا تتبدل ، أفلم تكن لهم قلوب ؟ فانهم يرون ولا يدركون ، ويسمعون ولا يعتبرون ، ولو كانت هذه القلوب مبصرة جلأشت بالذكرى ، وجلأشت بالعبرة ، وجنحت الى الاىمان . ويخلع الله على (الصم البكم الذى لا يعقلون) صورة البهىمة فى الحس والآىال ! .. (ولا تكونوا كالذى قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . إن شرّ الدوابّ عند الله الصمّ البكم الذى لا يعقلون) .

وانهم لكذلك ! إنها لدواب بهذا الظل . بل هم شرّ الدواب ! فالبهائم لها آذان ولكنها لا تسمع إلا كلمات مبهمه ؛ ولها لسان ولكنها لا تنطق أصواتاً مفهومة . إلا أن البهائم مهتدبة بفطرتها فىما يتعلق بشؤون حياتها الضرورية .

أما هؤلاء الدواب فهم موكولون الى ادراكهم الذى لا ينتفعون به . فهم شرّ الدواب قطعاً (إن شرّ الدواب عند الله الصمّ البكم الذى لا يعقلون . ولو علم الله فىهم خيراً لأسمعهم) .. أى لأسمع قلوبهم وشرحها لما تسمعه آذانهم ، ولكنه - سبحانه - لم يعلم فىهم خيراً ولا رغبة فى الهدى ، فقد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقى والاستجابة ؛ فلم يفتح الله عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم ، وما أفسدوا هم من فطرتهم . ولو جعلهم الله يدركون حقيقة ما يدعون إليه ، ما فتحو قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا .. (ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) .. لأن العقل قد يدرك ، ولكن القلب المطموس لا يستجيب . فحتى لو أسمعهم الله سماع الفهم لتولوا هم عن الاستجابة . والاستجابة هى السماع الصبىح . وكم من ناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب .. (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون علىه وكىلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبىلا) .

وهو تعبير عجيب يرسم نموذجاً عميقاً لحالة نفسية بارزة ، حين تنفقت النفس من كل المعايير الثابتة والمقاييس المعلومة ، والموازن المضبوطة ، وتخضع لهواها . وتحكم شهواتها ، وتتعبذ ذاتها ، فلا تخضع لميزان ، ولا تعترف بحد ، ولا تعتق بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغى الذي جعلت منه إلهاً يُعبد ويطاع .

إنه الصورة الناطقة المعبرة عن ذلك النموذج الذي لا جدوى من المنطق معه ، ولا وزن للحجة ، ولا قيمة للحقيقة . فهو غير قابل للهدى . ويخطو القرآن في تحقير هؤلاء الذين يتعبدون هواهم ، ويحكمون شهواتهم ، ويتنكرون للحجة والحقيقة ، تعبداً لذواتهم وهواها وشهواتها ، يخطو خطوة أخرى فيسويهم بالأنعام التي لا تسمع ولا تعقل . ثم يخطو الخطوة الأخيرة فيدحرجهم من مكانة الأنعام الى درك أسفل وأحطّ .

هذه الكثرة التي تتخذ من الهوى إلهاً مطاعاً ، والتي تتجاهل الدلائل وهي تطرق الأسماع والعقول ، فهي كالأنعام . وما يفرق الانسان من البهيمة إلا الاستعداد للتدبر والادراك ، والتكيف وفق ما يتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع . ووقوف عند الحجة والاعتناع . بل إن الانسان حين يتجرد من خصائصه هذه ليكونن أحط من البهيمة ، لأن البهيمة تهتدي بما أودعها الله من استعداد ، فتؤدي وظائفها أداء كاملاً صحيحاً . بينما يهمل الانسان ما أودعه الله من خصائص ولا ينتفع بها كما تنتفع البهيمة .

فهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليفقهوا - ودلائل الايمان والهدى حاضرة في الوجود وفي الرسائل تدر كها القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة - وهم لم يفتحوا أعينهم ليصروا آيات الله الكونية . ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة ، لقد عطلوا هذه الأجزاء التي وهبها ولم يستخدموها . لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون (أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) والذين يغفلون عما

حولهم من آيات الله في الكون وفي الحياة ، والذين يغفلون عما يرهم من الأحداث والغير فلا يرون فيها يد الله ، أولئك كالأنعام بل هم أضل . فللأنعام استعدادات فطرية تهديها . أما الجن والانس فقد زودوا بالقلب الواعي والعين المبصرة والأذن الملتقطة . فاذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدر كوا . إذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ، ولا تلتقط أعينهم مشاهدتها ودلالاتها ، ولا تلتقط آذانهم ايقاعاتها واتجاهاتها ، فانهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة الى استعداداتها الفطرية الهادية ، ثم هم يكونون من ذرء جهنم ! يجري بهم قدر الله اليها وفق مشيئته حين فطروهم باستعداداتهم تلك ، وجعل قانون جزائهم هذا فكانوا - كما هم في علم الله القديم - حطب جهنم منذ كانوا .. (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوباً لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) .

والله سبحانه يرسم مشهداً حسيماً لهذه الحالة النفسية ، يصورهم كأنهم مغفلون ممنوعون قسراً عن النظر ، محال بينهم وبين الهدى والايان بالحواجز والسدود ، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون .. (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) . إن أيديهم مشدودة بالأغلال الى أعناقهم ، موضوعة تحت أذقانهم ، ومن ثم فان رؤوسهم مرفوعة قسراً ، لا يملكون أن ينظروا بها الى الأمام ! ومن ثم فهم لا يملكون حرية النظر والرؤية وهم في هذا المشهد العنيف ! وهم الى هذا محال بينهم وبين الحق والهدى بسد من أمامهم وسد من خلفهم ، فلو أرخى الشد لم تنفذ أبصارهم كذلك من هذه السدود ! وقد سدت عليهم سبيل الرؤية وأغشيت أبصارهم بالكلال !

ومع عنف هذا المشهد الحسي وشدته فان الانسان ليلتقي بأناس من هذا النوع يجيل اليه وهم لا يرون الحق الواضح ولا يدركون أن هنالك حائلًا عنيماً كهذا بينهم

وبينه . وأنه إذا لم تكن هذه الأغلال في الأيدي ، وإذا لم تكن الرؤوس مقمحة
ومجبرة على الارتفاع ، فإن نفوسهم وبصائرهم كذلك .. مكشودة عن الهدى قسراً
وملفوة عن الحق لفتاً . وبينها وبين دلائل الهدى سدٌّ من هنا وسد من هناك .

كذلك يصورهم الله موتى لأحياة فيهم ، صماً لا سمع لهم ، عمياً لا يهتدون إلى
طريق .. (إنك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت
بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) .. والذي
ينفصل حسه عن الوجود فلا يدرك نواميسه وسننه ميت لأحياة فيه . إننا هي حياة
حيوانية ، بل أضل وأقل ، فالحيوان مهدي بفطرته التي قلما تخونه ! والذي لا يستجيب
لما يسمع من آيات الله ذات السلطان النافذ في القلوب أصمّ ولو كانت له أذانان تسمعان
ذنبية الأصوات ! والذي لا يبصر آيات الله المبثوثة في صفحات الوجود أعمى ولو كانت
له عينان كالحيوان !

والتعبير القرآني البديع يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة .
حالة جمود القلب ، وخمود الروح ، وبلادة الحس ، وهمود الشعور (إنك لاتسمع الموتى
ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن
تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) .

والقرآن يخرجهم مرة في صورة الموتى ، والرسول ﷺ يدعو ، وهم لا يسمعون
الدعاء ، لأن الموتى لا يشعرون ! ويخرجون مرة في صورة العمي يمضون في عماسهم ؛
لا يرون الهادي لأنهم لا يبصرون !

أما المؤمنون . فهم الأحياء ، وهم السامعون ، وهم المبصرون (إن تسمع إلا
من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ..

إنما تسمع الذين تهيأت قلوبهم لتلقي آيات الله ، بأحياة والسمع والبصر وآية

الحياة الشعور . وآية السمع والبصر الانتفاع بالمسموع والمنظور . والمؤمنون ينتفعون بحياتهم وسمعهم وأبصارهم .

إن الاسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة ، فما يكاد القلب السليم يعرفه حتى يستسلم له .

أما الذين لا يستجيبون فهم الذين يتعبدون هواهم .. (أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) ..

والتعبير القرآني المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تتروك الأصل الثابت وتتبع الهوى المتقلب ، وحين تتعبد هواها ، وتخضع له ، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها . وتقيمه إلهاً قاهراً لها مستولياً عليها ، وتتلقى إشارات المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول .. يرسم هذه الصورة ويعجب منها في استنكار شديد . لقد انطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور ، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى ، وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعته للهوى طاعة العبادة والتسليم .. هؤلاء هم أهل النار (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة) .

أصحاب المشأمة . أي أصحاب الشمال أو هم أصحاب الشؤم والنحس . عليهم نار مؤصدة .. أي مغلقة .. أي أبوابها مغلقة عليهم . وهم في العذاب محبوسون .. لا يخرجون منها .. وهل أعسر من جهنم ؟ وإنما هي العسرى .

لقد عاشوا معطي المدارك مغلقى البصائر كأن لم يكن لهم سمع ولا بصر .. (يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، ولهم عذاب عظيم) .. وهي النهاية الطبيعية للكفر العنيد الذي لا يستجيب للنذير ، والذي يستوي عنده الانذار وعدم الانذار كما علم الله من طبعهم المطموس العنيد .

إنها آيات القرآن تنند من جهنم ونارها لعل* القلوب الغافلة تفتيق قبل أن يواجهها

العذاب . (فأنذرتكم ناراً تُلظى) . . هذه النار المستعرة .. وهل بعد الصلي في النار شقوة ..

وقد وصف النبي ﷺ بأحاديثه الشريفة كيف يتعذب أهل النار في النار :
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بفرس يجعل كل خطوة منه أقصى بصره ، فسار وسار معه جبريل عليه السلام ، فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة بسبعائة ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه ، ثم أتى على قوم ترسخ رؤوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : يا جبريل : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين تناقلت رؤوسهم عن الصلاة ، ثم أتى على قوم على أذبارهم رقايع ، وعلى أقبالهم رقايع ، يسرحون كما تسرح الأنعام إلى الضريع والزقوم ورضف جهنم ، قال : ما هؤلاء يا جبريل قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما الله بظلام للعبيد ، ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يريد أن يزيد عليها ، قال يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا رجل من أمتك عليه أمانة الناس لا يستطيع أداءها وهو يريد أن يزيد عليها ، ثم أتى على قوم تُقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : يا جبريل ما هؤلاء ؟ قال : خطباء الفتنة ، ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثورٌ عظيم فيريد الثور أن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع ، قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة فيندم عليها فيريد أن يردّها فلا يستطيع ، ثم أتى على وادٍ فوجد ريحاً طيبةً ووجد ربيع مسك مع صوت ، فقال : ما هذا ؟ قال : صوت الجنة ، تقول يا رب انتني بأهلي وبما وعدتني ، فقد كثر غرسي وحريري وسنديسي واستبرقي وعبقرتي ومرجاني وفضتي وذهي وأكوابي وصحافي وأباريقي وفواكهي وعسلي ومائي ولبي وخمري ، انتني بما وعدتني ، قال :

لك كل "مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بي وبرسلي ، وعمل صالحاً ولم يشرك بي شيئاً ، ولم يتخذ من دوني أنداداً ، فهو آمن ، ومن سألني أعطيته ، ومن أقرضني جزيته ، ومن توكل عليّ كفيته ، إني أنا الله لا إله إلا أنا ، لا خلف ليعادي ، قد أفلح المؤمنون ، تبارك الله أحسن الخالقين ، فقالت : قدرضيت ، ثم أتى علي واد فسمع صوتاً منكراً ، فقال : يا جبريل ، ما هذا الصوت ؟ قال : هذا صوت جهنم ، تقول : يارب اتني بأهلي وبما وعدتني ، فقد كثرت سلاسلي وأغلاطي وسعيري وحميمي وغساقني وغسليني ، وقد بعدُ قعري ، واشتد حرري ، اتني بما وعدتني ، قال : لك كل مشرك ومشركة ، وخيث وخيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ، قالت : قدرضيت^(١) عن أبي سعيد رضي عنه عن النبي ﷺ قال : (ويلٌ وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره^(٢)) وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : في قوله (سأرهقه صعوداً) قال : (جبل من نار يكلف أن يصعده ، فإذا وضع يده عليه ذابت ، فإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله عليه ذابت ، فإذا رفعها عادت ، يصعد سبعين خريفاً ، ثم يهوي كذلك^(٣))

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تعوذوا بالله من جُب الحزن أو وادي الحزن) قيل : يارسول الله ، وما جب الحزن أو وادي الحزن ؟ قال (واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة ، أعده الله للقراء المرأين^(٤)) وعن أنس عن النبي ﷺ قال ، (الزبانية أسرع إلى فسقة القراء منهم إلى عبدة

(١) رواه البزار ، عن الربيع بن أنس عن أبي العالية - أو غيره - عن أبي هريرة « الترغيب والترهيب ٥٢٥٢ » .

(٢) رواه أحمد ، والترمذي إلا أنه قال : « واد بين جبلين يهوي فيه الكافر سبعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره » ورواه ابن حبان في صحيحه بنحو رواية الترمذي ، والحاكم ، وقال صحيح الإسناد .

(٣) رواه أحمد والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

(٤) رواه البيهقي بإسناد حسن .

الأوثان . فيقولون يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان؟ فيقال لهم : ليس من علم كمن لا يعلم^(١))
وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (ثلاثة لا يدخلون الجنة :
مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر ، ومن مات مدمن الخمر سقاه الله جل وعلا
من نهر الغوطة) قيل : وما نهر الغوطة؟ قال : (نهر مجري من فروج المومسات^(٢) ،
يؤدي أهل النار ربيع فروعهن^(٣))

وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من
شرب الخمر لم يرضى الله عنه أربعين ليلة ، فإن مات مات كافرا ، فإن عاد كان حقا على
الله أن يسقيه من طينة الجبال) . قيل : يا رسول الله وما طينة الجبال؟ قال : (صديد
أهل النار^(٤))

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (صنفان من أهل النار لم أرهما :
قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس . . ونساء كاسيات عاريات يميلات
مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها . وإن ريحها
لتوجد من مسيرة كذا وكذا^(٥))

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (الناشئة إذا لم تتب
قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب^(٦))

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (يؤتى بالعالم يوم القيامة
فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الخمار بالرحا ، فيطيف به أهل النار فيقولون :

(١) رواه الطبراني وابو نعيم .

(٢) المومسات : هن الزانيات .

(٣) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٤) رواه أحمد بإسناد حسن .

(٥) رواه مسلم .

(٦) رواه مسلم .

مالك؟ فيقول: كنت أمر بالخير ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية^(١)

إنها آيات القرآن تنذر من جهنم ونارها لعل القلوب الغافلة تفتق قبل أن يواجهها العذاب (فانذرتكم ناراً تلتظي) .. هذه النار المستعرة .. وهل بعد العلى في النار شقوة (إنا أنزناكم عذاباً قريباً ..) ليس بالبعيد .. فجهنم تنتظركم وتترصد لكم على النحو الذي رأيتم. والدنيا كلها رحلة قصيرة، وعمر قريب! وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً) ..

وما يقولها إلا وهو ضائق مكروب! وهو تعبير يلقي ظلال الرهبة والندم حتى ليشقى الكائن الانساني أن ينعدم، ويصير إلى عنصر مهمل زهيد: ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرعب الشديد ..

إنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المحدودة. وإنه لبكاء في الآخرة. وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون .. (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون) ..

عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ - أنه قال: (والذي نفسي بيده، لو رأيتم ما رأيتم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً) قالوا: وما رأيتم يا رسول الله؟ قال: (رأيت الجنة والنار)^(٢)

روى عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنها أن النبي ﷺ مر بقوم وهم يضحكون فقال: (تضحكون وذكر الجنة والنار بين أظهركم) قال: فمارئي أحد منهم ضاحكاً حتى مات، قال: ونزلت فيهم: (نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم)^(٣)

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم وأبو يعلى .

(٣) رواه البزار وليس في إسناده من ترك ولا انهم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ - أنه خطب فقال : (لا تنسوا العظيبتين : الجنة والنار) ثم بكى أو بلّ لحيته ، ثم قال : (والذي نفس محمد بيده لو تعلمون ما أعلم من أمر الآخرة لمشيتم إلى الصعيد ولحيتم على رؤوسكم التراب^(١))

قال محمد بن كعب : (لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً : يقولون : (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) .. فيقول الله تعالى مجيباً لهم : (ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير) .. ثم يقولون : (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً) فيجيبهم الله تعالى : (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) . فيقولون : (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل) فيجيبهم الله تعالى : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) .

ثم يقولون : (ربنا غلبت علينا شقوتنا و كنا قوماً ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) . فيجيبهم الله تعالى : (اخشوا فيها ولا تكلمون) .. فلا يتكلمون بعدها أبداً وذلك غاية شدة العذاب^(٥) .

٣ - أحوال الناس في جهنم

ينزل الله سبحانه : (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكماً) .
هذه جهنم ، مشهد وراء مشهد ، مشهد مؤلم مفزع رعب ، إنها عذاب الله القوي العزيز ، لا يتصور هذا العذاب إلا من ذاقه - والعياذ بالله - (يومئذ لا يعذب عذابه

(١) رواه ابو يعلى .

(٢) أحياء علوم الدين ج ٤ ص : ٥١٨ .

أحد ولا يوتق وثاقه أحد) .. فأهون العذاب كما يصوره النبي ﷺ بقوله : (إن أهون أهل النار عذاباً رجلٌ في أخمص قدميه جمرتان يغلي منها دماغه كما يغلي الرجل بالقمقم^(١)) .

وقوله ﷺ (إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشرا كان من نار يغلي منها دماغه كما يغلي الرجل ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً) .
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن أهون أهل النار عذاباً رجل منتعل بنعلين من نار يغلي منها دماغه مع أجزاء العذاب ، ومنهم من في النار إلى كعبيه مع أجزاء العذاب ، ومنهم من في النار إلى ركبتيه مع أجزاء العذاب ، ومنهم من قد اقتصر^(٢)) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن أهون أهل النار عذاباً أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منها دماغه^(٣)) .

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته^(٤)) .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (يؤتى بأنعم أهل الدنيا [من أهل النار] فيصبغ في النار صبغة ، ثم يقال له : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ صبغة في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك من شدة قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ما مر بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط^(٥)) .

(١) رواه البخاري والثاني لفظ مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) رواه أحمد والبخاري ورواه رواه الصحيح .

« ٣ ، ٤ ، ٥ » رواه مسلم .

إنه الهول .. فكيف بمن (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها) .. إنه مشهد شاخص متكرر . يشخص له الخيال ، ولا ينصرف عنه ! إنه الهول . ولل هول جاذبية آسرة قاهرة !

إن القرآن يرسمه مشهداً عنيقاً مفزعاً (كلما نضجت جلودهم) ويرسمه عجبياً خارقاً للمألوف (بدلناهم جلوداً غيرها) .. ذلك جزاء الكفر - وقد تهيات أسباب الإيمان - وهو مقصود . وهو جزاء وفاق .

السعير المتأجج . الجلود الناضجة المشوية المعذبة . كلما نضجت بدلت . ليعود الاحتراق من جديد . ويعود الألم من جديد ، إنه مشهد مكروب ملهوف . مشهد أولئك الكافرين حين تكون النار ثيابهم ، وتسيل جلودهم ولحومهم (فالذين كفروا قطعتم لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها - من غم - أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) .

إنه مشهد عنيف صاخب ، هذه ثياب من النار تقطع وتفصل ! وهذا حميم ساخن يصب من فوق الرؤوس ، يثصر به ما في البطون والجلود عند صبّه على الرؤوس . وهذه سياط من حديد أحتمته النار ، وهذا هو العذاب يشتد ، ويتجاوز الطاقة ، فيبده الذين كفروا من الوهج والحميم والضرب الأليم يهيمون بالخروج من الغم . وهامهم أولاء يردون بعنف . ويسمعون التأنيب ، وذوقوا عذاب الحريق .

هاهي ذي جهنم محيطة بالكافرين (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول : ذوقوا ما كنتم تعملون) .. إنه مشهد مفزع في ذاته ، يصاحبه التقرير الهزلي والتأنيب المرير .

فأني يستعجل . أن تحيط به جهنم وتهم أن تطبق عليه وهو غافل مخدوع ، بصيرون إليها ويأوون . وبأسوءها من ماوى خير منه التشريد (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار

كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها) . وهو مشهد فيه حركة المحاولة للفرار والدفع للنار (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) .. فهو التقرير زيادة على الدفع والتعذيب .

ولهم في جهنم مهاد ولكن لا راحة فيه . إنه جهنم (فبئس المهاد) ! ولهم فيه شراب ساخن وطعام مقبيء . إنه ما يغسق ويسيل من أهل النار ! أولهم صنوف أخرى من جنس هذا العذاب

(هذا وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج) .

ثم مشهد أولئك الطاغين من أهل جهنم . كانت في الدنيا متواذرة متحابّة . فهي اليوم متناكرة متنازرة .. (هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار . قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار . قالوا : ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار) .

هاهم يقتمحون النار فوجاً بعد فوج . وهاهم أولاء يقول بعضهم لبعض (هذا فوج مقتحم معكم) .. فماذا يكون الجواب ؟ يكون الجواب في اندفاع وحنق (لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار) .. فهل يسكت المشتومون ؟ كلا إنهم يردّون .. (بل أنتم لا مرحباً بكم) .. فلقد كنتم أنتم السبب في هذا العذاب . وإذ دعوة فيها الحلق والضيق والانتقام (قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار) .

وإننا لنجدحنتق الخدوعين الذين زين لهم قرناؤهم وأغرّوهم (وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلّنا من الجن والإنس نجعلها تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) ، إنه الحلق العنيف ، والتحرّق على الانتقام ، وذلك بعد الموادة والخنادنة والوسوسة والتزيين .

لأنها جهنم يكتون فيها ويحترقون وفيها يفتنون (يوم هم على النار يفتنون)
ومعه التكبيت المؤلم في الموقف العصيب ، (ذوقوا فنتكم هذا الذي كنتم به
تستعجلون) .. (أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا وإنما
تجزون ما كنتم تعملون) .

٤ — هيئة أهل النار

إن حديث القيامة هو حديث هذا القرآن المتكرر ، يُذكر به وينذر ويبشر ،
وليستجيش به في الضمائر الحساسة والحشية والتقوى والتوجس ، كما يثير به الرجاء
والارتقاب والتطلع . ومن ثم يستحي هذه الضمائر فلا تموت ولا تغفل . يقول الله
سبحانه : (هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى ناراً
حامية .. فهناك يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة ، عملت ونصبت فلم تحمد العمل
ولم ترضى العاقبة . ولم تعبد إلا الوبال والحسرة ، فزادت مضطراً وإرهاقاً وتعباً ، فهي
عملت لغير الله ، ونصبت في غير سبيله . عملت لنفسها ولأولادها . وتعبت لدنياها
ولأطعامها ، ثم وجدت عاقبة العمل والكد . وجدته في الدنيا شقوة لغير زاد . وجدته
في الآخرة سواداً يؤدي إلى العذاب . وهي تواجه النهاية مواجهة الذليل المرهق المتعوس
الخائب الرجاء ! ومع هذا الذل والرهق والعذاب والألم تصلى ناراً حامية تذوقها وتعانيها
يقول الله سبحانه : (إن المجرمين في ضلال وسعر . يوم يسحبون في النار على وجوههم
ذوقوا مس سقر)

في ضلال يعذب العقول والنفوس ، وفي سعر تكوى الجلود والأبدان . وهم
يسحبون في النار على وجوههم في عنف وتحقير ، في مقابل الاعتزاز بالقوة والاستكبار .
وهم يزدون عذاباً بالإيلام النفسي .. (ذوقوا مس سقر) . هؤلاء المجرمون في ضلال
وسعر يسحبون في النار على وجوههم في مهانة . ويلذعون بالتأنيب كما يلذعون بالسعير .

هذه هي جهنم حاضرة معروضة - كما ترون - (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) .. متناه في الحرارة كأنه الطعام الناضج على النار ! وهم يتراوحون بين هذا السائل الآتي . إنظروا إنهم يطوفون الآن .

والهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشوي الأجسام . والماء متناه في الحرارة لا يبرد ولا يُروي (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في مميم وحميم وظل من مجحوم لا بارد ولا كريم) .. وهناك الظل .. ظل من مجحوم .. ظل الدخان اللاص الحائق .. إنه ظل للسخرية والتهمك . ظل لا بارد ولا كريم .. فهو ظل ساخن لا روح فيه ولا بارد ، وهو كذلك كز لا ينعيم وراده راحة ولا انعاشاً .. هذا الشظف كله جزاء وفاق .. (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) .. وما ألم الشظف للمترفين .

إنه جزاء وفاق ، وإننا لنكاد نسمع الأمر الرهيب للمجرمين المكذبين ليأخذوا طريقهم إلى العذاب ، في تأنيب مرير وإيلام عسير : (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغني من اللهب . إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالت صفر . ويل يومئذ للمكذبين) .

ذهبوا مُطلقاً بعد الارتهان والاحتباس في يوم الفصل الطويل . ولكن إلى أين؟ إنه انطلاقٌ خيرٌ منه الارتهان . فها هو ذا أمامكم حاضر مشهود . إنه ظل لدخان جهنم تمتد السنة في ثلاث شعب . ولكنه ظل خيرٌ منه الوهج .. إنه ظل خانق حار لافح . وتسميته بالظل ليست إلا امتداداً للتهمك .. انطلقوا . وإنكم لتعرفون إلى أين ! وتعرفون هذه التي تتطلقون إليها .. إلى جهنم .. فالشرر يتتابع في حجم البيت .. فإذا تتابع بدأ كأنه جمالت صفر ترتع هنا وترتع هناك ! وهذا هو الشرر فكيف بالنار التي ينطلق منها الشرر ؟

تغشاهم وتركبهم ، وتكربهم الذلة (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهبهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلاماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

الآية ترمم صورته حسيه للظلام النفسي والكدره التي تغشى وجهه المكروب
المأخوذ المرعوب . كأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعا غشيت بها هذه الوجوه ..
وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبة ، تبدو فيه هذه
الوجوه ملفعة بأغشية من هذا الليل البهيم .

هناك الخسران الذي مابعده خسران ، خسران النفس التي تنتهي إلى جهنم وخسران
(قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا ذلك هو الخسران
المبين . لهم من فوقهم ظللٌ من النار ومن تحتهم ظلل ، ذلك يخوف الله به عباده .
بإعباد فاتقون) ..

وهو مشهد رعب حقا . مشهد النار في هيئة ظل من فوقهم وظلل من تحتهم ، وهم
في طيات هذه الظلل المعتمة تلفهم وتحتوي عليهم . وهي من النار ! إنه مشهد رعب .
يعرض الله لعباده . وهم بعد في الأرض يملكون أن ينأوا بأنفسهم عن طريقه ، ويخوفهم
مغيبته لعلمهم بيجتنبوه .

إن الله طرد الكافرين من رحمته ، وهيباً لهم ناراً مسعرة متوقدة ، فهي معدة
جاهزة حاضرة .. (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً ، خالدين فيها أبداً لا يجدون
ولياً ولا نصيراً ، يوم تقلب وجوههم في النار ، يقولون : يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول .
وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ، فأضدنا السيلا . ربنا آتتهم ضعفين من العذاب
والعنهم لعناً كبيراً) .. إنها نار معدة جاهزة . باقين فيها عهداً طويلاً ، لا يعلم مداه إلا
الله ، ولا نهاية له إلا في علم الله ، حيث يشاء الله . وهم مجردون من كل عون ، ومحرومون
من كل نصير ، فلا أمل في الخلاص من هذا السعير ، بمعونة من ولي ولا نصير . . يوم
تقلب وجوههم في النار . . والنار تغشاهم من كل جهة ، والحرص على أن تصل النار إلى
كل صفحة من صفحات وجوههم زيادة في النكال . . يقولون : يا ليتنا .. وهي أمنية
ضائعة ، لا موضع لها ، ولا استجابة ، فقد فات الأوان . إنما هي الحسرة على ما كان

إنها البغثة التي تذهل العقول ، وتشل الإرادة ، وتحرمهم مهلة الأنظار والتأجيل ،
(لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم
ينصرون . بل تأتيهم بغتة فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) .

ها هي النار حيت واحمرت . وها هي ذي معدة مهيأة فليبدأ العذاب الأليم ..
(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم
يجمى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم
فذوقوا ما كنتم تكنزون) ..

ها هي ذي الحياة تكوى .. لقد انتهت عملية الكي في الجباه ، فليداروا على
الجنوب ها هي ذي الجنوب تكوى .. لقد انتهت هذه فليداروا على الظهر ..
ها هي ذي الظهر تكوى .. ثم يتبع ذلك التوذيل والتأنيب . هو بذاته الذي كنزتموه
للذة ، فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب .. ذوقوا كنوزكم .. إنه هو الذي
تذوقون منه مسه للجنوب والظهر والجباه ! ألا إنه لمشهد مفزع مروع . هذه هي
هيتهم في النار .. (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) فلهم من نار جهنم من
تحتهم فراش ، يدعوهم - للسخرية- مهاداً ، وما هو مهّد ولا لين ولا مريح . ولهم من نار
جهنم أغظية تغشاهم من فوقهم !

إنها الاهانة والتحقيير في العذاب . لا مجرد العذاب .. (إذ الأغلال في أعناقهم
والسلاسل يسحبون) .

بهذه المهانة كما تسحب الأنعام والوحوش ! وعلام التكريم ؟ ولقد خلعوا من
أنفسهم شارة التكريم . وبعد السحب والجر في هذا العذاب ، وفي هذه المهانة ينتهي
بهم المطاف الى ماء حار والى نار .. (في الحميم ثم في النار يسجرون) .. أي يربطون
ويحبسون ، على طريقة سجر الكلاب . أي يملأهم المكان ماء حاراً وناراً موقدة .
والى هذا ينتهون . وبيناهم في هذا العذاب المهين يوجه إليهم التبكيت والتوذيل

والاحراج والاعنات (ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دوت الله ؟) ..
فيجيون لإجابة المهدوع الذي انكشفت له خدعته ، وهو يائس حسير .. « قالوا :
ضلوا عنا . بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً) .. لقد كانت كلها أوهاماً وأضاليل .
ويوجه إليهم التأييب : (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم
تفرحون . ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) ..

يا مغيث ! وأين كان السحب في السلاسل والأغلال ، وكان الماء الحار والنار ؟
يبدو أنها كانت مقدمة للدخول في جهنم للخلود .

إن أغلال العقل والقلب جزاؤها الأغلال في الأعناق يوم القيامة (وإن تعجب
فعبج قولهم إذا كنا تراباً إنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك
الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

تنسيقاً بين غل العقل وغل العنق ؛ والجزاء هو النار خالدين فيها . فقد عطلوا كل
مقومات الإنسان التي من أجلها يكرمه الله ، وانتكسوا في الدنيا فهم في الآخرة
يلاقون عاقبة الانتكاس حياة أدنى من حياتهم الدنيا ، التي عاشوها معطلي الفكر
والشعور والاحساس .

لذلك أعد الله للكافرين جهنم بأغلالها وسلاسلها .. (إنا أعتدنا للكافرين سلاسلًا
وأغلالاً وسعيراً) .

سلاسل للأقدام ، وأغلالاً للأيدي ، وناراً تتسعر يلقى فيها بالمسلسلين المغوليين .
وقد زاد الله عذاب الكافرين بزيادة حجم أجسامهم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (ما بين منكبي الكافر مسيرة
ثلاثة أيام للراكب المسرع^(١)) .

(١) رواه البخاري ومسلم .

وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (ضرس الكافر مثل أحد ، وفخذه مثل البيضاء ، ومقعده من النار كما بين مُقديد ومكة ، وكثافة جسده اثنان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار (١)) (٢) .

وفي رواية للترمذي قال : (إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل أحد ، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة (٣)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى .. (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) قال : (يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ، ويمد له في جسده ستون ذراعاً ، ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من نور يتلأل ، فينطلق إلى أصحابه ، فيرونه من بعيد ، فيقولون : اللهم آتنا بهذا ، وبارك لنا في هذا ، حتى يأتيهم ؛ فيقول لهم : أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا ، قال : وأما الكافر فيسود وجهه ، ويمد له في جسده ستون ذراعاً في صورة آدم ، ويلبس تاجاً من نار ، فيراه أصحابه ، فيقولون : نعوذ بالله من شر هذا ، اللهم لا تأتنا بهذا ، فيأتيهم ، فيقولون : اللهم اخزه ، فيقول : أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا (٤)) .

عن مجاهد قال : قال ابن عباس : أتدري ما سعة جهنم ؟ قلت : لا ، قال : أجل والله ، والله ماتدري ! إن بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً تجري فيه أودية القيسح والدم ، قلت أنهار ؟ قال : بل أودية (٥) .

ومن ظلال هذه المشاهد تتطلق صيحة من صيحات الانذار ، وهزة للنساء بين السادرين في الحمار (ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً . إنا أنذرناكم عذاباً

(١) الجبار : ملك اليمين له ذراع معروف المقدار كذا قال ابن حبان وغيره .

(٢) رواه أحمد واللفظ له ، ومسلم ولفظه : قال : « ضرس الكافر - أو ناب الكافر - مثل أحد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث » .

(٣) وقال في هذه : حديث حسن غريب صحيح .

(٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب ، وابن حبان في صحيحه والبيهقي .

(٥) رواه أحمد بإسناد صحيح والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

قريباً . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً) .

إن الفرصة ما تزال سائحة . فمن شاء اتخذ إلى ربه ما أباقبل أن تكون جهنم مرصداً وما أبأ .. وهذا الانذار الذي يوظف من الحمار : (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) .. ليس بالبعيد ، فجهنم تنتظركم وتترصد لكم . والدنيا كلها رحلة قصيرة ، وعمر قريب . وهو عذاب من المهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً) .. وما يقولها إلا هو ضائق مكروب . وهو تعبير يلقي ظلال الرهبة والندم ، حتى ليتمنى الكائن الانساني أن ينعدم . ويصير إلى عنصر مهمل زهيد . ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرعب الشديداً .

من هناك .. من هذا الجو الراجف الواجف المبهور المذعور يعطي الرسول ﷺ هذه المشاهد لعل الانسان يراجع نفسه ويتخذ إلى ربه ما أبأ :

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (وهم فيها كالخوت) قال : (تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يرسل البكاء على أهل النار فيكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود ، لو أرسلت فيها السفن لجرت) رواه ابن ماجه وابو يعلى ، ولفظه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتبكوا ، فإن أهل النار يكون حتى تسيل دموعهم في خدودهم كأنها جداول ، حتى تنقطع الدموع فيسيل - يعني الدم - فيقرح العيون (٢)) .

(١) رواه أحمد والترمذي ، وقال حديث حسن صحيح غريب ، والحاكم وقال : صحيح الاسناد .

(٢) وفي اسنادهما يزيد النراقشي ، وبقية رواية ابن ماجه نقات احتج بهم البخاري ومسلم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقتهم فلفحتهم لفة ، فلم تدع لهما على عظم إلا ألقته على العرقوب^(١)) .
 وعن النبي ﷺ قال : (يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غلظ جاده سبعون ذراعاً ، وإن خرسه مثل أحد^(٢)) .

قال الحافظ عبد العظيم : وقد ورد أن من هذه الأمة من يعظم في النار كما يعظم فيها الكفار ؛ فروى ابن ماجه ، والحاكم وغيرهما ، من حديث عبد الله بن قيس قال : كنت عند أبي بردة ذات ليلة ، فدخل علينا الحارث بن أقيش رضي الله عنه ، فحدثنا الحارث ليلئذ أن رسول الله ﷺ قال : (إن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من مضر ، وإن من أمتي من يعظم للنار حتى يكون أحد زواياها^(٣)) .

ه — طعام أهل النار

لقد كان الانذار الأكبر والأشد والأكثر تكراراً في القرآن هو الانذار بيوم الجمع « وتندر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير » .
 يوم يجمع الله ماتفرق من الحلاتق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة ، ليفرقهم من جديد (فريق في الجنة وفريق في السعير) بحسب عملهم في دار العمل في هذه الأرض . في فترة هذه الحياة الدنيا . حيث يلقى أهل النار في النار .. يلقى أهل جهنم في جهنم ليندوقوا العذاب .. (إن عذاب جهنم كان غراماً إنها ساءت مستقراً ومقاماً)

-
- (١) رواه الطبراني في الاوسط ، والبيهقي مرفوعاً ، ورواه غيرهما موقوفاً عليه ، وهو أصح .
 (٢) رواه أحمد والطبراني في الكبير والايوسط ، واستاده قريب من الحسن .
 (٣) التلغظ لابن ماجه ، واستاده جيد . وقال النحاكم : صحيح على شرط مسنم .

يوم تفتح جهنم فإها ، تم أن تلتهم ، بأسطة أيديها تم أن تقبض على القريب والبعيد .
إن عذابها ملازماً لا يتحول عن صاحبه ولا يفارقه ولا يقبله . فهذا ما يجعله مروعاً مخيفاً
شيعاً .. وهل أسوأ من جهنم مكاناً يستقر فيه الانسان ويقيم . وأين الاستقرار وهي
النار؟ وأين المقام وهو التقلب على اللظى ليل نهار ! (هل أذاك حديث الغاشية وجوه
يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية) تذوقها وتعانها .. وتسقى من عين آنية .
حارة بالغة الحرارة . وطعامهم شجر من نار جهنم (تسقى من عين آنية ليس لهم طعام
إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع) .

فهذا لون من ألوان الطعام يومئذ مع الغسلين والغساق وباقي هذه الألوان لا تسمن
ولا تغني من جوع . وواضح أننا لا نملك في الدنيا أن ندرك طبيعة هذا العذاب في
الآخرة . إنما تجيء هذه الأوصاف للتمس في حسنا البشري أقصى ما يملك تصويره من الألم
الذي يتجمع من الذل والوهن والحية ومن لسع النار الحامية ، ومن البرد والارتواء
بالماء الشديد الحرارة ! والتغذي بالطعام الذي لا تقوى الإبل على تذوقه ، وهو شوك
لا نفع فيه ولا غناء .

من مجموعة هذه التصورات يتجمع في حسنا إدراك لأقصى درجات الألم . وعذاب
الآخرة بعد ذلك أشد . وطبيعته لا يتذوقها إلا من يذوقها والعياذ بالله ! . فكيف بمن
طعامهم الضريع والزقوم التي يتكرر ذكرها في القرآن .. (أذلك خيرٌ نزلًا أم شجرة
الزقوم ! إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه
رؤوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوباً
من حميم . ثم إن مرجعهم إلى الجحيم) .

والناس لا يعرفون رؤوس الشياطين كيف تكون؟ ولكنها مفزعة ولا شك .
ومجرد تصورهما يثير الفزع والرعب . فكيف إذا كان طلعها يأكلونه . ويملاون
منه البطون .

لقد جعل الله هذه الشجرة قننة للظالمين . فحين سمعوا باسمها سخروا وقالوا :
كيف تنبت شجرة في الجحيم ولا تحترق . فإذا شاكت حلوهم وهي كروؤس
الشياطين – وحرقت بطونهم – وهي في أصل الجحيم ولا تحترق لأنها من نوع الجحيم !
وتطلعوا إلى برد الشراب ينقع الغلة ويطفيء اللمب . فإنهم لشاربون عليها ماء ساخناً
مشوباً غير خالص ، وبعد هذه الوجبة يغادرون تلك المائدة عائدين إلى مقرهم المقيم .
وباله من نزل ! وباله من معاد .. (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم)

فالجوع طاغ والمحنة غالبة وليس لهم إلا شجرة الزقوم (ثم إنكم أيها الضالون
المكذبون لا تكونون من شجر من زقوم فمالتون منها البطون) ..
ولا يدري أحد ما شجرة الزقوم إلا ما وصفها الله به من أنطلعها كروؤس
الشياطين . وروؤس الشياطين لم يرها أحد ، ولكنها تلقي في الحس ما تلقيه ! على أن لفظ
الزقوم نفسه يصور يجرسه ملساً خشناً ، شائكاً مديباً يشوك الأكف يبده الحلو ، ومع
أن الزقوم كروؤس الشياطين فإنهم لا يكونون منها فمالتون منها البطون .

إنها نار الله تتلظى وتحترق (كلا إنها لظى نزاعة للشوى) .. تنزع الجلود عن
الوجوه والروؤس نزاعاً . وهي غول مفزعة . ذات نفس حية تشارك في الهول والعذاب
عن إرادة وقصد (تدعوا من أدبر وتولى) تدعوه كما كان يدعى من قبل إلى الهدى فيدبر
ويتولى . ولكنه اليوم إذ تدعوه جهنم لا يملك أن يدبر ويتولى . ولقد كان من قبل
مشغولاً عن الدعوة بجمع المال وحفظه في الأوعية ! فأما اليوم فالدعوة من جهنم لا يملك
أن يلهو عنها . ولا يملك أن يفتدي بما في الأرض كله منها .

إنها مشاهد عنيفة لتلمس في حسنا الألم لنخاف ونستقيم .. (إن شجرة الزقوم
طعام الأنيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم . خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم . ثم
صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . مُذِقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إن هذا ما كنتم
به تفترون) ..

إنه مشهد مفرع مرعب مخيف .. إن هذا الطعام مثل دردري الزيت المغلي - وهو المهل - ينزل في البطن كغلي الحميم . وهناك هذا الأثيم . هذا المتعالي على ربه وعلى الرسول الأمين . وهذا هو الأمر العالي يصدر إلى الزبانية ليأخذوه في عنف يلقى بمقامه الكريم .. خذوه أخذاً، واعتلوه عتلاً ، وشدوه في إهانة وجفوة فلا كرامة ولا هودة . وهناك صبوا فوق رأسه من ذلك الحميم المغلي الذي يشوي ويكوي . ومع الشد والجذب والدفع والعتل ، والكبي والشبي .. التأنيب والترذيل .. وهذا جزاء العزيز الكريم في غير ما عزّة ولا كرامة . إنه الأخذ والعتل والصب والكبي والتأنيب والحزبي .

إنه العذاب الأليم الأليم . عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : (اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتن مسلمون) .. فقال رسول الله ﷺ (لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ^(١))

إنه عذاب الجبار القهار القوي المتين .. لقد أعد لهم ما لم يتصوروه .. (ذرني والمكذبين أولي النعمة ومهملهم قليلاً) ، آخِلٌ بيني وبين المكذبين ، فأنابهم كفيل . كلمة يقولها الجبار القهار القوي المتين ، والمكذبون بشر من البشر ، والذي يتهدم هو الذي أنشأهم ابتداءً وخلق هذا الكون العريض بـ .. (كن) ولا تزيد .

إنها القاصمة المزلزلة المذهلة حين يخلو الجبار، إلى هذه الخلائق الهينة المضعوفة مها يكن من جبروتهم في الأرض على أمثالهم من الخالقي ، ولو مهلم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلا قليلاً . وإن هي إلا يوم أو بعض يوم في حساب الله . وفي حسابهم هم أنفسهم حين تطوى ، بل إنهم ليحسونها في يوم القيامة ساعة من نهار إلهي قليل أياً كان

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه الا انه قال « فكيف بمن ليس له طعام غيره » ورواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما ، وقال الترمذي حديث حسن صحيح ، وروي موقوفاً على ابن عباس .

الأمَد ، ولو مضوا من هذه الحياة .. ثم إلى عذاب الله .. (إن لدينا أنكالاً وجحياً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً) .

والأنكال - هي القيود - والحميم والطعام ذو الغصة الذي يمزق الحلق والعذاب الأليم ، كلها جزاء مناسب ، إن عندنا قيوداً تنكل بهم وتؤذيهم ، وجحياً تجمعهم وتصلبهم ، وطعاماً تلازمه الغصة في الحلق ، وعذاباً أليماً في يوم نحيف .

عن ابن عباس رضي الله عنها في قوله تعالى (طعاماً ذا غصة) قال : (شوك يأخذ بالخلق لا يدخل ولا يخرج^(١)) .

إنها صور حسية عنيقة من العذاب تتناسب مع الناس الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام: (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) ، فالجو متاع غليظ وأكل غليظ ، والجزء ماء حميم ساخن وتقطع الأمعاء التي كانت تحشى وتلتهم الأكل كالأنعام : (وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم) .

٦ - شراب أهل النار

إن الذين لا يخافون الآخرة تظل قلوبهم صماء لا تتفتح للآيات ولا تحس بحكمة الخلق والاعادة ، ولا ترى إلا واقعها القريب في هذه الدنيا . وحتى العبر التي تمر في هذه الحياة لا تثير فيها عظة ولا فهماً ، والقيامة تقرب : (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما تؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم سقي وسعيد . فأما الذين سقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) .

يرتسم أمامنا مشهد التجمع يشمل الخلق جميعاً . على غير إرادة منهم ، إنما هو

(١) رواه الحاكم موقوفاً ، وقال صحيح الإسناد .

سوق الجميع سوقاً إلى ذلك المعرض المشهود ، والكل يحضر والكل ينتظر ما سوف يكون ، والصمت الهائل يغطي الجميع ، والرغبة الشاملة تخيم على المشهد ومن فيه ، ثم تبدأ عملية الفرز والتوزيع فمنهم شقي في النار مكروبي الأنفاس لهم فيها زفير وشهيق من الحر والكتمة والضيق .

لإنهم لا يحشون يوماً يلقون فيه الله فيحاسبهم على الظلم والافتراء .. (بل كنّبوا بالساعة وأعدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ، وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثبورا واحداً وادعوا ثبورا كثيراً) .

إنه مشهد يزلزل القلوب الصلدة ويهز المشاعر الحامدة ، ماذا ينتظرهم ، إنها السعير حاضرة مهيأة ، إنه مشهد السعير المتسعرة ، وقد دبت فيها الحياة ! فإذا هي تنظر فترى أولئك المكذبين بالساعة . تراهم من بعيد ! فإذا هي تتغيظ وترفر فيسمعون زفيرها وتغيظها ، وهي تحرق عليهم ، وتصعد الزفرات غيظاً منهم ، وهي تتميز من النعمة ، وهم إليها في الطريق .

مشهد رعب يزلزل الأقدام والقلوب ! ثم هاهم أولاء قد وصلوا . فلم يتركوا هذه الغول طلقاء . يصارعونها فتصرعهم ، ويتحامونها فتغلبهم . بل ألقوا إليها إلقاء . ألقوا مقرنين ، قد قرنت أيديهم إلى أرجلهم في السلاسل . وألقوا في مكان منها ضيق ، يزيدهم كربة وضيقاً ، ويعجزهم عن التفلت والتحمل ، ثم هاهم أولاء يأسون من الخلاص ، مكرويون في السعير . فراحوا يدعون إلى الهلاك أن ينقذهم من هذا البلاء . فالهلاك اليوم أمنية الممتني ، والمنفذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب ، وكيف وشراهم يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء : (وسقوا ماءً حمياً فقطع أمعاءهم) .

إن جهنم خلقت ووجدت وكانت مرصداً للطاغين تنتظرهم وتترقبهم وينتهون

إليها فإذا هي معدة لهم ، مهيأة لاستقبالهم (إن جهنم كانت مرصداً للطاغين مآباً لابئين فيها أحقاباً لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وعساقاً جزاءً وفاقاً) .

فهم يشربون الماء الساخن يشوي الحلق والبطون . فهذا هو البرد ! وإلا العساق الذي يغسق من أجساد المحروقين ويسيل فهذا هو الشراب . وهو يوافق ما أسلفوا وما قدموا ، انهم كانوا لا يرجون حساباً ولا يتوقعون مآباً ، فمآبهم يوم القيامة هو جهنم (إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً) .

أعدناها وأحضرناها ، فهي لا تحتاج الى جهد لإيقادها ، ولا تستغرق زمناً لإعدادها . وهي نار ذات سرادق يحيط بالظالمين ، فلا سبيل إلى الهرب ، ولا أمل في النجاة والافلات . ولا مطعم في منفذتهب منه نسمة ، أو يكون فيه استرواح . فإن استغاثوا من الحريق والظماً أغيثوا بماء كدرديري الزيت المغلي في قول ، وكالصديد الساخن في قول ! يشوي الوجوه بالقرب منها . فكيف بالحلق والبطون التي تتجرعه . عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ في قوله كالمهل قال : كعكر الزيت ، فإذا قرّب الى وجهه سقطت فروة وجهه فيه (١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم ، حتى يخلص الى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يترق من قدميه ، وهو الصهر ثم يعاد كما كان (٢)) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى (ويسقى من ماء صديد يتجرعه) قال : يُقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة

(١) رواه احمد والترمذي . قال الحافظ : قد رواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال

صحيح الاسناد ..

(٢) رواه الترمذي والبيهقي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب .

ه ، فاذا شرب قطع أمعاه حتى يخرج من ذؤبه ، قال الله عز وجل : (وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاهم) ويقول (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب ^(١)) .

لقد أخذوا بما فعلوا ؛ وهذا جزاؤهم : شراب ساخن يشوي الحلق والبطون ، وعذاب ألم بسبب كفرهم : (لهم شراب من حميم وعذاب ألم بما كانوا يكفرون) .
وإن الشوك الحشن الذي يأكلونه في جهنم ليدفع الى الماء لتسليك الحلق وري البطون ! فطعامهم ذي غصة ، فيذكرون أنهم يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب ، فيدفع إليهم الحميم بكلايب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم ! وإنيهم لشاربون (قشاربون عليه من الحميم) الساخن الذي لا يبرد غلة ولا يروي ظمأ . (فشاربون شرب الميم) وهي الإبل المصابة بداء الاستسقاء لا تكاد ترتوي من الماء .

إنه الشراب ، ليس شراب ارتواء إنما شراب للحريق والعذاب (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه . ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ) ..
(فليذوقوه حميم وغساق) .

مشهد عجيب .. إنه مشهد الحية لكل جبار عنيد . مشهد الحية في هذه الأرض . ولكنه يقف هذا الموقف ، من ورائه تخايل جهنم وصورته فيها ، وهو يسقى من الصديد السائل من الجسوم . يسقاه بعنف فتجرعه غصباً وكرهاً ، ولا يكاد يسيغه ، لقدارته ومرارته ، والتقرز والتكره باديان نكاد نلمحها من خلال الكلمات !

(١) رواه احمد والترمذي والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لو أن " دَلُوا من غساق. (١)
يهرق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا (٢)) .

ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنه لا يموت ، ليستكمل
عذابه . ومن ورائه عذاب غليظ . . (هذا نزلهم يوم الدين) والنزل للراحة
والاستقرار . ولكن نزلهم هذا لا راحة فيه ولا قرار ! هذا نزلهم في اليوم الذي كانوا
يَشْكُون فيه ويشاءون عنه . إنه مشهد عجيب للجبار الخائب المهزوم ووراءه
مصيره يخال له على هذا النحو المروع الفظيع .

وإن الله سبحانه يدعو الناس للاستجابة لمنهجه قبل أن يفجأهم هذا المصير
(استجبوا الربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ، ما لكم من ملجأ يومئذ
وما لكم من نكير) .

استجبوا الربكم قبل أن يفجأكم المصير فلا تجدوا ملجأ يقيمكم ، ولا نصير ينكر
مصيركم الأليم . هناك يفتق الانسان كما يفتق الخمور ، ويفتح عينه بعد العشي
والكلال . فما نحن أولاء نسمع صوتاً آتياً من قبيل النار ، ملؤه الرجاء والاستجداء
(وفادى أصحاب النار أصحاب الجنة : أن أفوضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله .

(١) هو المذكور في القرآن (فليذوقوه حميم وغساق) (لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً ، الا
حميماً وغساقاً) وقد اختلف في معناه ، فقيل : هو ما يسيل من بين جلد الكافر ولحمه ، قاله ابن
عباس ، وقيل هو صديد اهل النار ، قاله ابراهيم وقتاده ، وعطية وعكرمة ، وقال كعب : هو عين
في جهنم تسيل اليها حمة كل ذات حمة من حية أو عقرب أو غير ذلك فيستقع فيؤنى بالادمي فيغمس
فيها غمسة واحدة ، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام ، ويتعلق جلده ولحمه في عقبه
وكعبه ، فيجر لحمه كما - يجر الرجل ثوبه ، وقال عبد الله بن عمرو : الغساق : القيح الغليظ ،
لو ان قطرة منه تهراق في المغرب لانتن أهل المشرق ، ولو تهراق في المشرق لانتن أهل المغرب .

(٢) رواه الترمذي « قال الحافظ » : رواه الحاكم وغيره من طريق ابن وهب عن عمرو بن
الحارث به ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد .

قالوا: إن الله حرمها على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرهم الحياة الدنيا) .

هكذا يجيب أهل الجنة جواباً ملؤه التذكير الأليم المرير ، ثم إذا صوت البشر عامة يتوارى ، لينطق رب العزة والجلالة ، وصاحب الحكم : (فالיום ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا . وما كانوا بآياتنا يجحدون) .

إنها خفقات عجيبة في صفحات المشهد المعروض ، حيث لا فسحة لتوبة ، ولا شفاة في الشدة ، ولا رجعة للعمل مرة أخرى .

يقول الامام المحاسبي (.. فتوهم كبذك والنار تداخل فيها ، وأنت تتادي فلا ترحم ، وتبكي وتعطى الندم ، إن رددت ألا تعود ، فلا تقبل توبتك ، ولا يجاب نداؤك .

فتوهم نفسك وقد طال فيها مكثك وألمع العذاب ، فبلغت ، غاية الكرب ، واشتد بك العطش فذكرت الشراب في الدنيا ففرغت إلى الجحيم ، فتناولت الاناء من يد الحازن الموكل بعذابك ، فلما أخذته نشئت كففك من تحته ، وتفسخت حرارته ، وهيج حريقه ، ثم قرَّبته إلى فيك فشوى وجهك ، ثم تجرعتة فسلخ حلقك ، ثم وصل الى جوفك فقطع أمعاءك ، فناديت بالويل والشور ، وذكرت شراب الدنيا ويرده ولذته ، ثم أقلعت الحريق ، فبادرت إلى حياط الجحيم لتبرد بها ، كما تعودت في الدنيا الاغتسال والانغماس في الماء إذا اشتد عليك الحر فلما اغتمست في الجحيم تسلخ من قرونك إلى قدمك ، فبادرت الى النار رجاء أن تكون هي أهون عليك ، ثم اشتد عليك حريق النار فرجعت الى الجحيم وأنت تطوف بينها وبين حميم آن ، وهو الذي قد انتهى حره وتطلب الروح فلا روح بين الجحيم وبين النار ، تطلب الروح فلا روح أبداً . فلما اشتد بك الكرب والعطش وبلغ منك المجهود ذكرت الجنان فهاجت غصة من فؤادك إلى حلقك أسفاً على جوار الله عز وجل ، وحرناً على نعيم الجنة ، ثم ذكرت شرابها ويرد

ماثها وطيب عيشها ، فتقطع قلبك حسرة لحرمان ذلك ، ثم ذكرت أن فيها بعض القرابة من أب أو أم أو أخ ، وغيرهم من القرابة فناديتهم بصوت محزون من قلب محترق قلت : يا أماء أو يآبائاه أو يآخاه أو يآخلاه أو يآعماه أو يآختي ، شربة ماء ، فأجابوك بالحبية فتقطع قلبك حسرة بما خبيوا من أملك ، وبما رأيت من غضبهم عليك لغضب ربك عز وجل ، ففزعت إلى الله بالنداء بالمرجع والعتبي أن يردك إلى الدنيا ، فكث عنك دهرأ طويلاً لا يجيبك هواناً بك وإن صوتك عنده بمقوت ، وجاهلك عنده ساقط ، ثم ناداك بالحبية منه أن (اخشوا فيها ولا تكلمون) ، فلما سمعت نداءه ضاقت نفسك في صدرك وبقيت قلقاً تزفر لانطق الكلام ولا يخرج منك نفس ، ثم أراد أن يزيدك إياساً وحسرة ، فأطبق أبواب النار عليك وعلى أعدائه فيها . فما ظنك إن لم يعف عنك ، وقد سمعت رجوف بابها قد أغلقت ؟

فيا إياسك وإياس سكان جهنم حين سمعوا وقع أبوابها تطبق عليهم فعلموا عند ذلك أن الله عز وجل إنما أطبقها لئلا يخرج منها أحدٌ أبداً ، فتقطعت قلوبهم إياساً وانقطع الرجاء منهم ألا فرج أبداً ولا يخرج منها ولا محيص لهم من عذاب الله عز وجل أبداً خلوداً فلا موت ، وعذاب لا زوال له عن أبدانهم ، فلا روح ولا راحة تعلق بهم أبداً ، أحزان لا تنقضي ، وغموم لا تنفد ، وسقم لا يبرأ ، وقيود لا تحل ، وأغلال لا تفك أبداً ، وعطش لا يروون بعده أبداً ، وكراب لا يهدأ أبداً ، وجوع لا يشبعون بعده أبداً إلا بالزقوم ينشب في خلوقهم فيستغيثون بالشراب ليسوغوا به غصصهم فيقطع أمعاءهم ، وحسرة فوت رضوان الله عز وجل في قلوبهم ، وكمد حرمان جوار الله عز وجل يتردد في صدورهم ، لا يرحم بكآؤهم ، ولا يجاب دعاؤهم ، ولا يغاثون عن تضرعهم ، ولا تقبل توبتهم ، فهم في عذاب دائم وهوان لا ينقطع ، فمثل نفسك بهذا الوصف إن لم يعف عنك . فلو رأيت المعدنين في خلقهم وقد أكلت النار لحومهم ومحت محاسن وجوههم واندرس تخطيطهم ، فبقيت العظام مواصلة محترقة مسودة وقد قلقوا واضطربوا في قيودهم

وأغلامهم وهم ينادون بالويل والشبور ، ويصطرخون بالبكاء والحويل ، إذا لذاب قلبك
فزعاً من سوء خلقهم وتضعفت من رائحة تنهم ولما بقي روحك في بدنك من شدة وهج
أبدانهم وحرارة أنفاسهم . فكيف بك إن نظرت إلى نفسك فيها وأنت أعدم ، وقد
زال من قلبك الأمل والرجاء ولزمه القنوط والإياس وعطفت على بدنك فتعممت على
الحدقتين فسمعت تفضيضا انتقاماً وبدلاً من نظرك إلى ما لا يجب ولا
يرضى ، ودخلت النار في مسامعك فتسمع لها فيه قصيفاً وجلبة ، والتحفث عليك
فنفضت منك العظام ودوبت اللحم ، واطلعت إلى الجوف فأكلت الكبد والأحشاء
فغلبت على قلبك الحسرة والندامة والتأسف .

فتوهم ذلك بعقل فارغ ، وقد هاجت منك رحمة لضعفك ، وارجع عما يكره
مولاك وترضى عسى أن يرضى عنك وأعدّ به بعقلك واستقله يقلك عثراتك ، وابتك من
خشيتك عسى أن يرحمك ويقل عثراتك ، فان الخطر عظيم وان البدن ضعيف والموت
منك قريب ، والله جل جلاله مع ذلك مطلع يراك ، وناظر لا يخفى عليه منك سر ولا
علانية ، فاحذر نظره بالقت والبغضة والغضب والقلاء ، وأنت لاتشعر فرحاً أو قري
العين ، فاحذر الله عز وجل وخفه واستحي منه وأجله ، ولا تستخف بنظره ولا تهاون
باطلاعه ، وأجل مقامه عليك وعلمه بك وافرقة واخشه قبل أن يأخذك بغته ، ولير
أثر مصيبة مخالفتك له ليعلم ما قد بلغ منك خلافه ، فيعظم حزنك ويشد غمك بمخالفته ،
فان علم ذلك منك صفح عنك وعفى عنك ، فلا تعرض لله عز وجل فانه لا طاقة لك بغضبه
ولا قوة لعذابه ، ولا صبر لك على عقابه ، ولا صبر عندك عن جواره فتدارك نفسك
قبل لقائه ، فكأنك بالموت قد نزل بك بغته الموت فكأنه قد نزل فتوهم ما وصفت
لك فإنما وصفت بعض الجمل ، فتوهم ذلك بعقل فارغ موقن عارف بما قد جنيت على نفسك
وما استوجبت بجنايتك ، وفكر في مصيبتك في دينك ، ولير الله عز وجل عليك أثر
المصيبة لعله أن يرحمك فيتجاوز عنك لمغفرته وعصمته^(١))

(١) التوهم ص ٢٥ .

٧ - اغواء .. وتبرؤ .. وعذاب

إنه لا إهمال ولا فكاك ، يوم عصيب تشخص فيه الأبصار من الفزع والمهلع ،
فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك .. (إنما يؤخرهم
ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأقنعتهم هواء) .
إنهم في زحمة الهول ، مسرعين لا يلون على شيء ، ولا يلتفتون إلى شيء رافعين
رؤوسهم لاعن ارادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكاً . يمتد بصرمهم إلى ما يشاهدون
من الرعب . فلا يطوف ولا يرتد إليهم . وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئاً يعونه
أو يحفظونه أو يتذكرونه ، فهي هواء خواء .

إن الله يؤخر الناس حيث يقفون هذا الموقف ، ويعانون هذا الرعب المذهل .
هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه ، والذي ينتظرهم بعد الإهمال هناك . فأنذر الناس
أنه إذا جاء فلا فكاك يومئذ ولا اعتذار (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ، فيقول
الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتبعب الرسل ! أولم تكونوا
أقسمتم من قبل مالكم من زوال ؟ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين
لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) .

هناك الكل مكشوفون لا يستروهم ساتر ، ولا يقهم واق . ليسوا في دورهم
وليسوا في قبورهم . إنعام في العراء أمام الواحد القهار : (يوم تبدل الأرض غير
الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار) ثم ترى المجرمين (وترى المجرمين يومئذ
مقرنين في الأصفاة سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) .

مشهد المجرمين : اثنين اثنين مقرنين في الوثاق ، يرون صفاء وراء صف . مشهد
مذل . ويضاف إلى قرينهم في الوثاق أن سرايلهم وثيابهم من مادة شديدة القابلية
للالتهاب . وهي في ذات الوقت قذرة سوداء . ففيها الذل والتحقير وفيها الإيحاء بشدة

الاشتعال بمجرد قربهم من النار . وتغشى وجوههم النار . مشهد العذاب المذل المتلظى المشتعل جزاء المكر والاستكبار (ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب) أولئك لو مدّوا بأبصارهم الى يوم ينفقون بين يدي الله الواحد ! لو تطلّعوا ببصائرهم الى يوم يرون العذاب الذي ينتظر الظالمين ! (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب . إذ تبرا الذين أتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا : لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبتروا منا . كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار) . لو يرون إذ تبرا المتبوعون من التابعين . ورأوا العذاب . فقطعت بينهم الأواصر والعلاقات والأسباب ، وانشغل كل بنفسه تابعاً كان أم متبوعاً . وسقطت الرياسات والقيادات التي كان المخدوعون يتبعونها ، وعجزت عن وقاية نفسها فضلاً على وقاية تابعيها . وظهرت حقيقة الألوهية الواحدة والقدرة الواحدة ، وكذب القيادات الضالة وضعفها وعجزها أمام الله وأمام العذاب . وتبدى الحلق والغيظ من التابعين المخدوعين في القيادات الضالة . وتمنوا لو يردون لهم الجليل ! لو يعودون الى الأرض فيتبرؤوا من تبعيهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة في حقيقتها ، التي خدعتهم ثم تبرأت منهم أمام العذاب !

إنه مشهد مؤثر : مشهد التبرؤ والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين . بين الحبين والمحبوبين . وهنا يجيء التعقيب الممض المؤلم (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) .

إلى النار ، انضموا الى زملائكم وأولياكم من الجن والانس (قال : ادخلوا في أمم قد دخلت من قبلكم من الجن والانس في النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا ادركوا فيها جميعاً . قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم : فما

كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) ، هنا في النار ، أليس ابليس هو الذي عصى ربه ؟ وهو الذي أخرج آدم من الجنة وزوجه ؟ وهو الذي أغوى من أغوى من أبنائه ؟ وهو الذي أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم في النار ؟ . فادخلوا إذن جميعاً ، ادخلوا سابقين ولاحقين ، فكلكم أولياء ، وكلكم سواء ! .

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ، ويملي متبوعها لتابعها ، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنازب فيها (كلما دخلت أمة لعنت أختها) ، فما أباسها نهاية تلك التي يلعن فيها الابن أباه ، ويتنكر فيها الولي لمولاه .

وتلاحق آخرهم وأولهم ، واجتمع قاصيم بدانيم ، بدأ الخصام والجدال ، وهكذا تبدأ مهزلتهم أو مأساتهم . ويكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء ، وهم متناكرون أعداء ، يتهم بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ويطلب له من (ربنا) شر الجزاء . فيكون الجواب استجابة للدعاء . ولكن أية استجابة ! لكم ولهم جميعاً ما طلبتم من مضاعفة العذاب ، إنه مشهد ساخر أليم .

ودونك فقف بتصورك ما انشاء أمام هذا المشهد العجيب .. (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلجّ الجمل في سمّ الحياض وكذلك نجزي المجرمين) .

مشهد الجمل تجاه ثقب الابرة . فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير ، فانتظر حينئذ - وحينئذ فقط - أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين ، فتقبل دعاءهم أو توبتهم - وقد فات الأوان - وأن يدخلوا الى جنات النعيم ! أما الآن ، وإلى أن يلجّ الجمل في سمّ الحياض ، فهم هنا في النار ، التي تداركوا فيها جميعاً وتلاحقوا ، وتلاوموا فيها وتلاعنوا ، وطلب بعضهم لبعض سوء الجزاء .

هناك وقد برزوا لله جميعاً . الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين

(وبرزوا لله جميعاً) ، برزوا جميعاً مكشوفين . وهم مكشوفون لله دائماً . ولكنهم الساعة يعلمون ويحسّون أنهم مكشوفون لا ينجيهم حجاب ، ولا يستترهم ساتر ، ولا يقيهم واق .

والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم (إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) ، وقد اتبعناكم فانتبهنا الى هذا المصير الأليم .

لقد حقّ العذاب ، ولا رادّ له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذي كان فيه العذاب يجدي فيرد الضالين الى الهدى ، وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله . لقد انتهى كل شيء ولم يعد هناك مفر ولا محيص .. (قالوا : لو هدانا الله لهديناكم . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) .. لقد قضى الأمر وانتهى الجدل ، فالنار هي الرشد والعطاء فهي وردهم ، وبأبتسائه من ورد (بئس الورد المورد) ، ورد لا يروي غلة ، ولا يشفي صدى ، إنما يشوي البطون والقلوب ، أولئك المبعودون المطرودون لهم اللعنة (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) أولئك فرحوا بالحياة الدنيا ومتاعها الزائل فلم يتطلعوا الى الآخرة ونعيمها المقيم .

٨ - حسرة وألم

إنها حلقات عذاب رهية لاهنة مكروبة ، فاذا انتهت الحلقة بدأ الظالمون يستردون أنفاسهم اللاهنة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشدّ هولاً ووعباً وهكذا .
فها هي الجحيم وقد سُعرت، (واذا الجحيم سُعرت) ، حيث تتوقد الجحيم وتتسع، ويزاد لهيبها ووهجها وحرارتها ، فعندما تقع أحداث القيامة الهائلة ، في كيان الكون. عندئذ لا يبقى لدى النفوس شك في حقيقة ما عملت ، وما تزودت به لهذا اليوم ، وما حملت معها للعرض ، وما أحضرت للحساب ، (عامت نفس ما أحضرت) .

كل نفس تعلم في هذا اليوم الهائل مامعها ومالها وما عليها، تعلم وهذا الهول يحيط بها ويغمرها ، تعلم وهي لا تعلمك أن تغير شيئاً مما أحضرت ، ولا أن تريد عليه ولا أن تنقص منه ، تعلم وقد انفصلت عن كل ما هو مألوف لها ، معهود في حياتها أو تصورها وقد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها . وقد تغير كل شيء وتبدل كل شيء . ولم يبق إلا وجه الله الكريم ، الذي لا يتحول ولا يتبدل ، فما أولى أن تتجه النفوس إلى وجه الله الكريم ، فتجده سبحانه ، عندما يتحول الكون كله ويتبدل ! فكل ما على الأرض ومن على الأرض عائد إلى الله في ذلك اليوم العظيم ، (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم . أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين . وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) .

ويل لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم . بهذا التنكير والتفخيم والتهويل . المشهد الذي يشهده الثقلان : الانس والجن ، وتشهده الملائكة في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار ، فما أعجب حالهم ، لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة . وهم أسمع شيء وأبصر شيء يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخرى ولإسماعهم ما يكرهون وتبصيرهم ما يتقون في مشهد يوم عظيم .

وأنذرهم يوم الحسرة ، يوم تشتد الحسرات حتى لكان اليوم محض للحسرة لاشيء فيه سواها ، فهي الغالبة على جوه ، البارزة فيه . أنذرهم هذا اليوم الذي لا تنفع فيه الحسرات . أنذرهم ذلك اليوم الذي لا شك فيه . أنذرهم العذاب الدائم ، أنذرهم عذاب الخلود . (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ، لا يفتروا عنهم وهم فيه مبسلون) . وهو عذاب دائم ، وفي درجة شديدة عسية ، لا يفتقر لحظة ، ولا يبرد هنية . ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص ، ولا كوة من رجاء بعيد . فهم يائسون قانطون . ثم تناوح في الجو صيحة من بعيد . صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق (ونادوا يا مالكا ليقضي علينا ربك) . إنها صيحة

متناوحة من بُعد سحيق . من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم . إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين ، إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغيث . فهم مبلسون يائسون . إنما يصيحون في طلب الهلاك . الهلاك السريع الذي يريح . وحسب المنيا أن يكن أمانيا ، وإن هذا النداء ليلقي ظلًا كثيفاً للكرب والضيق ، وأنا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوساً أطار صواها العذاب ، وأجساماً تجاوز الألم بها "حد" الطاقة ، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة ، (بامالك ليقضي علينا ربك) . والجواب يجيء في تيبس وتخذيل ، وبلا رعاية ولا اهتمام . (قال : إنكم ما كئون) . فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء ، إنكم ما كئون ، (إنه من يأت ربه مجرمًا فإن لهم جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) فلا هو ميت فيستريح ، ولا هو حي فيتمتع إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة . فهم متركون في جهنم لا يخرجون ولا يطلب إليهم اعتذار ولا عتاب (فالיום لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) . (والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور) .

نرى القلق والاضطراب وعدم الاستقرار ، فلا هذه ولا تلك . حتى الرحمة بالموت لاتال ، ونسمع صوت غليظ محسرج مختلط الاصداء ، متناوح من شتى الأرجاء . إنه صوت المنبوذين في جهنم (وهم يصطرخون فيها) ، ولتتين من ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول : (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل) . إنه الانابة والاعتراف والندم إذن . ولكن بعد فوات الأوان .

فها نحن أولاء نسمع الرد الحاسم بحمل التائب القاسي (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) فلم تنتفعوا بهذه الفسحة من العمر ، وهي كافية للتذكر لمن أراد أن يتذكر .

إنه العذاب الشديد ، فلا مراجعة في الحكم ، ولا مجال لتغييره أو تعديل . وقد قضى الأمر (إن الله قد حكم بين العباد) ، وما من أحد من العباد يخفف شيئاً

من حكم الله . وحين يدرك هؤلاء أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، إنجه هؤلاء خزنة جهنم في ذلة تعم الجميع وفي ضراعة . لأنهم يستغيثون حراس جهنم ، ليدعوا بهم في رجاء يكشف عن شدة البلاء (ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب) .

.. يوماً .. يوماً فقط يلقطون فيه أنفاسهم ويستريحون فيوم واحد يستحق الشفاعة والشفعة والدعاء ولكن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة . فهم يعرفون الأصول ويعرفون سنة الله ، ويعرفون أن الأوان قد فات . وهم لهذا يزيدون المعذبين عذاباً بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب .

وعندئذ نفض الخزنة أيديهم منهم وأسماؤهم إلى اليأس مع السخرية والاستهتار ، (قالوا : أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى ! فادعوا) . إن كان الدعاء يغير من حالكم شيئاً . فتولوا أنتم الدعاء . (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) . لا يبلغ ولا يصل ولا ينتهي إلى جواب . إنما هو الإهمال والازدراء .

لقد كشفت الجحيم وأبرزت للغاوين ، الذين ضلوا الطريق وكدبوا يوم الدين . وانهم لعلى مشهد من الجحيم يقفون ، حيث يسمعون التقريع والتأنيب . (وبززت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون فكذبوا قياهم والغاوون ، وجنود ابليس أجمعون . قالوا : وهم فيها يختصمون : تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا الجرهمون . فمالنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) .

إنهم يُسألون عما كانوا يعبدون من دون الله . ثم لا يسمع منهم جواب ، ولا ينتظر منهم جواب . إنما هو سؤال مجرد التقريع والتأنيب ، فكذبوا ، واننا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام . وصوت الكركبة الناشئة من الكبكبة ، كما ينهار الجرف فتبعه الجروف . وإنهم لغاوون ضالون ، وقد كبكب معهم جميع الغاوين . ثم يفيقون فيعلمون أن الأوان قد فات

وأنه لا جدوى من توزيع التبعات . فلا آلهة تشفع ، ولا صداقات تنفع . وإذا لم تكن شفاعة فيما مضى أفلا رجعة إلى الدنيا لتصلح مافاتنا فيها . وما هو إلا التمني . فلا رجعة ولا شفاعة فهذا يوم الدين ، فلا نسمع إلا الويل (ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين . إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) . يقولون ياويلنا ، وهو تفجع المفجوه الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة ، فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف ، ويدعو بالويل والهلاك ، ويعترف ويندم ، ولكن بعد فوات الأوان . ويقذفون في جهنم قذفاً بلا رفق ولا أناة ، وكانما تحصب بهم حصباً كما تحصب بالنواة . هذه مشاهد مؤلمة ، كلها ملؤها الحسرة والأسى ، فبعد ان اطمأن أصحاب الجنة إلى دارهم ، واستيقن أصحاب النار من مصيرهم ، وإذا الأولون ينادون الآخريين يسألونهم عما وجدوه من وعد الله القديم ، (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم ! فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) ، وفي هذا السؤال من السخرية المبررة ما فيه . هؤلاء الذين يريدون الطريق عوجاً لا استقامة فيه ، وهم بالآخرة كافرون ، انهم يريدون العوج ولا يريدون الاستقامة . فالاستقامة لها صورة واحدة : صورة المضي على طريق الله ونهجه وشرعه . وكل ما عداه فهو أعوج . وهو ارادة للعوج . وهذه الارادة تلتقي مع الكفر بالآخرة فما يؤمن بالآخرة أحد ، ويستيقن أنه راجع إلى ربه ، ثم يصد عن سبيل الله ، ويجيد عن منهجه وشرعه .

إن الله سبحانه قد أحصى كل شيء احصاء دقيقاً لا يفلت منه حرف (وكل شيء أحصيناه كتاباً) ، فلا رجاء في تغيير أو تخفيف انما هي زيادة العذاب (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً) .

إن هذه الذكري سينتفع بها من يخشى ويخاف الله (سيدكر من يخشى) ذلك الذي يستشعر قلبه التقوى ، فيخشى غضب الله وعذابه . والقلب الحي يتوجس ويخشى ،

منذ يعلم أن للوجود إلهاً خلقَ فسوّى وقدرَ فهدى ، فلن يترك الناس سدى ، ولن يدعهم هملاً ، وهو لا بد محاسبهم على الخير والشر ، ومجازيهم بالقسط والعدل . ومن ثم فهو يخشى فإذا ذكر ذكر ، وإذا بصر أبصر ، وإذا وعظَ اعتبر . وكل من يتجنب هذه الذكري هو الأستقى (ويتجنبها الأستقى) يتجنب الذكرى ، فلا يسمع لها ولا يفيد منها . وهو اذن (الأستقى) .. الأستقى اطلاقاً واجمالاً . الأستقى الذي تتمثل فيه غاية الشقوة ومنتهائها . الأستقى في الدنيا بروحه الخاوية الميتة الكثيفة الضعيفة ، التي لا تحس حقائق الوجود ، ولا تسمع شهادتها الصادقة ، ولا تتأثر بوجهاها العميقة . والذي يعيش قلقاً متكابلاً على مافي الأرض كادحاً لهذا الشأن الصغير ! والأستقى في الآخرة بعذابها الذي لا يعرف له مدى (الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيا) .

والنار الكبرى هي نار جهنم . الكبرى بشدتها ، والكبرى بمدتها ، والكبرى بضخامتها . حيث يمتد بقاؤه فيها ويطون . فلا هو يموت فيجد طعم الراحة ، ولا هو يحيا في أمن وراحة . إنما هو العذاب الخالد ، الذي يتطلع صاحبه الى الموت كما يتطلع الى الأمنية الكبرى .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا صار أهل الجنة الى الجنة ، وأهل النار الى النار . جيء بالموت ، حتى يجعل بين الجنة والنار ، فيذبح ، ثم ينادي مناد : يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل النار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً الى فرحهم وأهل النار حزناً الى حزنهم) .

وفي رواية أن النبي ﷺ قال : (يدخلُ الله أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقوم مؤذنٌ بينهم ، فيقول : يا أهل الجنة لا موت ، ويا أهل النار لا موت ، كلٌ خالد فيها هو فيه ^(١)) .

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح^(١) ، فينادي منادٍ ، يا أهل الجنة ، فيشرئبون^(٢) وينظرون ، فيقول لهم : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي منادٍ ، يا أهل النار : فيشرئبون وينظرون ، فيقول لهم : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقول : يا أهل الجنة : خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ : « وأنذهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ، وأشار بيده الى الدنيا^(٣)) .

وتنطوي هذه الحياة الدنيا التي يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون ، تنطوي هذه الحياة في نفوس أصحابها أنفسهم ، فإذا هي عندهم عشية أو ضحاها (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) .

هذه هي : قصيرة عاجلة ، هزيلة ذاهبة ، زهيدة تافهة ، أمنن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة ؟ ومن أجل شهوة زائلة يدعون الجنة مثابة ومأوى ! ألا إنها الحماقة الكبرى . الحماقة التي لا يرتكبها انسان . يسمع ويرى !

* * *

-
- (١) (كبش أملح) الاملح : المختلط البياض والسواد .
(٢) (فيشرئبون) اشراب الى الشيء : اذا تطلع ينظر اليه .
(٣) أخرجه البخاري ومسلم .